

الفصل



التدهور والنقص

لاجدال في أن المتحمسين لليوجينيا قد حركتهم إعادة اكتشاف الوراثة المنديلية عام ١٩٠٠ وتطبيقاتها في الوراثة البشرية، لكن الواقع يقول إن ثمة مناخا بين أتباع هذه العقيدة لتقبل الأفكار اليوجينية كان يتشكل بالفعل في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا. فالدارونية الاجتماعية، باستدعائها الانتخاب الطبيعي لتفسير الظواهر الاجتماعية المختلفة قد استحضرت تيارا من المؤلفات مناصرا لليوجينية، تيارا تنبأ بالقضايا البارزة لحركة مابعد ١٩٠٠، لاسيما فكرة أن "الانتخاب الاصطناعي" - أي تدخل النولة أو الانسانيين في معركة البقاء الاجتماعي - قد بدأ يحل محل الانتخاب الطبيعي في تطور البشر. اعتبر البعض أن إمكانات الانتخاب الاصطناعي إمكانات طيبة، بينما انتاب القلق آخرين لأنه يقود إلى انحطاط السلالة. كتب الفريد راصل والاس عام ١٨٩٠ "في جلسة تمت أخيرا مع داروين وجدته ينظر إلى مستقبل البشرية نظرة متشائمة، لأن الانتخاب الطبيعي في حضارتنا الحديثة لايلعب دورا، فلم يعد البقاء للأصلح. فالناجحون من سلالتنا بسبب ثرائهم ليسوا على الاطلاق هم الأفضل ولا الأكثر ذكاء. ومن المؤسف أن مجتمعنا يتجدد في كل جيل من الطبقات الدنيا أساسا، لامن الطبقات المتوسطة ولا العليا".

أما والاس، العطوف الكريم، فقد فضل فكرة أن التحسين البيئي - لاالقضاء على "المتخلفين" - سيؤدي إلى التقدم الاجتماعي، لكنه اضطر إلى التسليم بأن أعمال جالتون وأوجست فايزمان قد ألفت "شكوكا خطيرة" على هذا الرأي. تشير دراسات جالتون الاحصائية في الوراثة، بقوة، إلى ثبات صفات العشائر البشرية، ولقد قدم فايزمان على ما يبدو تدعيما ميكانيكيا بنتائج نظريته عن البلازما الجرثومية، التي تقول إن قوة الوراثة تكمن في

لم يكن في بريطانيا ثمة ضجديد، وإنما كان بها تشارلس بوث الذى قام بدراسة لمسح لندن الفقراء فى ثمانينات وتسعينات القرن الماضى، وهى دراسة أخذت على أنها تعنى أن نسبة ثابتة قد حكم عليها أن تظل فقيرة. بذل قدر كبير من استثمار للمندلية، بعد سنة ١٩٠٠، فى تفسير السلوك البشرى. اقترحت إحدى الدراسات أن المزاج الدينى العنيف يفصح عن صفتين: الشعور الدينى، والتقلب. وحذرت الدراسة من إمكان انتقال الصفتين منفصلتين لتكون النتيجة أن يكون لأخ الشعور الدينى الثابت الطبيعى، بينما يرث أخوه التقلب بون أى كايح دينى، فيجد بالضرورة أن البيئة المنزلية لاتلائم طبيعته، ومن ثم يؤكد الفكرة الشائعة بأن أبناء الآباء الشديدي التدين يميلون إلى الانغماس فى الحياة الخلية".

ورغم ذلك فلم يكن يكفى لخلق حركة يوجينية أن ينشر كل مانشر عن اليوجينيا، ولا المناخ الفكرى الموطن للدارونية الاجتماعية الذى ازدهرت فيه هذه اليوجينيا. إنما كان العامل المهم هو تلك التغيرات الاجتماعية التى سببت التوتر فى بريطانيا والولايات المتحدة منذ تحول القرن: التصنيع، نمو المشاريع التجارية الكبرى، انتشار المدن وأحياء الفقراء، الهجرة الواسعة من الريف - ومن الخارج (بالولايات المتحدة). ربما عرفت المدن فى بريطانيا وأمريكا - دائما - البغاء، والجريمة، وإدمان الكحوليات، والمرض، لكن أياً من هذه المدن عموماً ما عرفت كل هذه البيانات الاحصائية التى تفصل بالأرقام حجم المشاكل. بينت الاحصاءات أن ثمة مشاكل - كمثل التعويق الذهنى أو الإجرام - تزداد سواء كل عام. لقد استوعب المجتمعان الانجليزى والأمريكى طويلاً أناساً ولدوا بالخارج، غير أن الولايات المتحدة قد تعرضت بصورة خاصة لهجرة واسعة من شرق وجنوب أوروبا، بلغت الملايين فى أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر، ملايين عبروا الأطلنطى ليستوطنوا المدن الرئيسية. وفى عام ١٨٩١ قدم الاقتصادى فرانسيس أمازا ووكر - الذى قاد الاحصاءات السكانية عامى ١٨٧٠ و ١٨٨٠ - قدم قضية احصائية مثيرة تقول إن المهاجرين يتكاثرون بمعدل أعلى من السكان المحليين. عرفت بريطانيا الهجرة أيضاً، فلقد توطن الأيرلنديون الكاثوليك فى ليفربول وبرمنجهام، أو تدفقوا مع اليهود البولنديين والروس إلى الطرف الشرقى للندن. كتب إيرفنج فيشر إلى دافينبورت عام ١٩١٢ يقول إن وطأة الهجرة وحدها كفيلاً أن تهيب "فرصة ذهبية لدفع الناس بوجه عام للتحدث فى اليوجينيا".

لماذا كانت هذه "الدفقة" الجديدة لليوجينيا؟ هكذا سأل أحد محررى "بيل ريفيو" سنة ١٩١٣. قال إن هذا يرجع جزئياً إلى إعادة اكتشاف قانونى مندل، لكنه يرجع أيضاً إلى تزايد ما يطلب من دافعى الضرائب. مضى يقول "أوضحت الاحصاءات زيادة سريعة ثابتة فى نسبة الإملاق والجنون والجريمة، فى المجتمع بأكمله، وهو ما يؤكد أن إعانة أمثال هؤلاء المنحرفين قد أصبحت عبئاً حقيقياً على كاهل دافع الضرائب، وأنه بالرغم مما قد يحدث من تحسن فردى فيمن يتمتع بهذه الرعاية، فإن نسلهم هم بالتحديد "يرتد" - إذا جاز التعبير - إلى الأسلاف المنحطين. فالتحسين لم يفعل أكثر من أن هبأ لهم الفرصة كى ينشروا بنورهم غير الطيبة. قيل فى إنجلترا إن "عدد ونوع من يولد فى أمة... هما من الأمور البالغة الأهمية لدى كل عاقل، إذ أن ذلك سيرتد إليه بطرية عملية كلما طرق بابه (أو) وصله خطاب وقعه مأمور ضريبية الدخل العام". أعلنت جمعية اليوجينيا الأمريكية فى عصر آل كابونى أن تكاليف الجريمة التى تدفعها العائلة المتوسطة تبلغ نحو ٥٠٠ دولار سنوياً، ثم أشارت: "ولابد أن نتذكر أن معظم المجرمين هم من نوى الذكاء المعتل أو نوى الاحساس المعتل، أو ممن يتصفون بكلتا الصفتين".

على أن اليوجينيا كانت تعكس القلق الاجتماعى للبروتستانت البيض - أهم معضديها - أكثر من قلقهم الاقتصادى. كانوا هم أقدم أرومة فى أمريكا، وكانوا هم أيضاً الأقدم فى بريطانيا، إن تكن المراتب اليوجينية لاتضم - إلا بالكاد - أعضاء من الأرسقراطية الوراثية. (كان اليوجينيون البريطانيون يميلون إلى تشويه سمعة النبالة الوراثية، بل لقد اقترح بعضهم إعادة تشكيل مجلس اللوردات تبعاً للقواعد اليوجينية). لاشك أن الأرسقراطية لم تعان من الزعزعة الاجتماعية التى قادت الطبقات الوسطى فى بريطانيا وأمريكا إلى تمجيد صفات "سلالة" شمال أوروبا أو الأنجلوسكسون (كان المصطلحان يستعملان مترادفين) وإلى الحط من قدر كل من يبدو أنه يهدد قوة "سلالة" وطنهم، بفضل موهبته الوراثية أو افتقاره لها.

كان الإيمان بمثل هذه القوة يعنى الكثير بالنسبة لبريطانيا الإمبريالية، فأمامها التحدى الألمانى البحرى يستثير القلق حول السيطرة البريطانية على البحار، ثم إن حرب البوير التى طالت قد أثارَت علامات الاستفهام حول حماس جون بول. برزت إشارات الانحطاط البدنى أثناء حرب البوير عندما أعلن المفتش العام على التجنيد أن ثمانية من بين أحد عشر متطوعاً من مانسستر قد رُفضوا لعدم ملامتهم جسدياً. تحرك البرلمان عام ١٩٠٣ ليشكل لجنة

تختص "بالتدهور القومي"، ورأى الكثير من الايطاليين أن نسيج أمتهم يتدهور - الملايح الأخلاقية العامة، الذكاء، النشاط، الطموح، القدرة على منافسة العالم.

عالج الفيزيائي الانجليزي و. س. د. هويدام وزوجته قضية قوة السلالة البريطانية عام ١٩٠٩ في كتابهما الشهير "العائلة والأمة". كان الزوجان - ولهما من الأطفال ستة - قد أزعجها تحديد النسل في الطبقات القادرة. فالرغبة في تحديد عدد الأطفال بالنسبة للقادرين هي عندهما "رقة خاطئة... خطر داهم بالنسبة للأمة، وخيانة عظيمة لجنس البشر". واستطرادا يقولان إن في تاريخ الأمم موعظة، فمثل هذه الممارسة كانت "مقدمة لخراب الدول، ولتدهور وسقوط الامبراطوريات". ثم حذرا في. أسى من أن معدل المواليد في ألمانيا قد انخفض بدرجة أكبر بكثير من بريطانيا.

أجرت الجمعية الأمريكية لليوجينيا مسابقة عام ١٩٢٨ - جائزتها الأولى ألف دولار - لأفضل المقالات عن أسباب تدهور الخصب في "سلالة شمال أوروبا". أطلق السيكلوجي ج. ستانلي هول رئيس جامعة كلارك، أطلق شبح "الخطر الأصفر والخطر الشرقي" مؤكدا أن "المستقبل للشعوب التي تحمل أكثر، من الأطفال الأفضل، وتربيتهم التربية الأفضل، فهؤلاء في نهاية المطاف هم من سيسيطرون على كاتجمع من ذرائع الحضارة البشرية، بينما تتوارى أمامهم السلالات غير الخصبة". أما تيوبور روزفلت - الإمبريالي العاتي، ورب الأسرة المرح، والذي توفيت زوجته في أعقاب الولادة - فنجده يوبخ الطبقة الوسطى والعليا من المجتمع لأنهما يتسببان في "انتحار السلالة"، بتحديدهما النسل. اتجه المصلحون التقدميون الذين وُسّموا باليوجينيا - كما فعل روزفلت - إلى أن يضعوا المصلحة القومية في منزلة عليا مقارنة بالمصالح المحلية، وإلى أن يضعوا مصلحة المجموع فوق مصلحة الفرد، وإلى أن يجدوا القوة الجديدة للإمبريالية الأمريكية. ولقد قلق مثل هؤلاء اليوجينيين أن فصول الخريجين من الذكور في هارفارد بلأخر القرن التاسع عشر - أي بعد خمسة وعشرين عاما - لا تشكل إلا نصف إلى ثلثي عددهم الأصلي.

ربما كان معدل المواليد التفاضلي لكارل بيرسون هو أكثر ما استشهد به اليوجينيون الأنجلو أمريكيون في مطبوعاتهم. ثمة نتائج لدراسة ديموغرافية أجريت عام ١٩٠٦ في عدد من أحياء لندن قام بها دافيد هيرون (من معمل جالتون) عضدت تحذيراته بأن النصف من كل

جيل يأتى عن مالايزيد عن ربع المتزوجين من الجيل السابق، وبأن الربع الخصب يتوزع فى غير تناسب نحو حثالة المجتمع. أكد الزوجان هويدام أن الاصلاحات الاجتماعية والتقدم فى المهارات الطبية قد رفعت متوسط العمر فى "أفراد السلالة الضعيفة والفاسدة"، ثم أنها - وهذا هو الأهم - قد قلت من معدل الوفيات فى مواليدهم. أما احتمال "التدهور القومى" فقد دفع الاجتماعى سيدنى ويب - فى منشور فابى - إلى أن يوسع من مدى استنباط بيرسون بأن الطبقات الدنيا تنجب أكثر من أى طبقة أخرى، فنجده يقول إن الأحياء الأفقر التى تتميز بكثرة الانجاب تحتفظ بالكاثوليك الأيرلنديين واليهود، المشهورين بالخصب العالى وبزيادة تكاثرهم لأسباب دينية. كتب ويب يقول فى بريطانيا اليوم يقوم نصف المتزوجين أو ثلثاهم بتنظيم نسلهم، ويظل الانجاب غير مقيد بين الكاثوليك الأيرلنديين واليهود البولنديين والروس والألمان من ناحية، كما بين التافهين وغير القادرين من ناحية أخرى، وهؤلاء فى معظمهم من العمال اللانظاميين وغيرهم من سكان الغرفة الواحدة فى مدننا الكبرى... ولن ينتج عن هذا إلا التدهور القومى، أو أن تسقط هذه النولة بالتدرج ليسودها الأيرلنديون واليهود. ثم إن هناك من الدلائل مايشير إلى أن حتى هؤلاء قد أصابتهم العدوى. وسينتهى الأمر إلى أن تنول هذه الدولة مستقبلا إلى الصينيين!".

كانت العنصرية من ملامح اليوجينيا فى بريطانيا وأمريكا - وكانت الفروق بين السلالات فى ذلك الوقت لاتحددها فقط الاختلافات فى لون الجلد، بل الهوية العرقية أيضا. كان اليوجينيون - فى وقار - يناقشون الملامح العرقية الوراثية لجاميع البوتستانت غير البيض. مجد بيرسون محاولة جالتون تصوير النمط اليهودى بالفوتوغرافيا المركبة (يقول بيرسون "كلنا يعرف الرجل اليهودى") وفى منتصف عشرينات القرن العشرين ذكر بيرسون أن الأطفال اليهود فى الطرف الشرقى من لندن لهم من الذكاء مثل المالمسيحيين، لكن أجسادهم تميل لأن تكون أدنى درجة، ثم أنهم أقدر لحدما. أخبر تشارلس دافينبورت موظفا عالى الرتبة بأن زواج اليهودية بالمسيحى سينتج نسلا ٩٠٪ منه يشبه الأب المسيحى "فاللامح اليهودية على العموم متتحة أمام الملامح غير اليهودية". أكد هويدام أنه إذا كان ثمة صفات طيبة فى اليهود أو فى غيرهم من الأجانب فإنها لاتعادل الصفات النموذجية للانجلوسكسون، ولا يمكن أن نعتبر هؤلاء المهاجرين المعادل المُرضى للمجتمع المحلى".

اعتنق اليوجينيون الأنجلو أمريكيون وجهة النظر السائدة فى زمانهم القائلة بالتخلف

البيولوجى الوراثى للسود. توقع بعض اليوجينيين أن التهجين قد يعطى نتائج عرقية طيبة - كما يحدث فى قوة الهجين - وذكر صمويل ج. هولز (أستاذ البيولوجيا بجامعة كاليفورنيا فى بيركلى)، فى اجتماع لنادى الكومنولث بسان فرانسيسكو أن سلالة الزنوج "تبيض" الآن بسبب إخصاب ذكور البيض للنساء السوداوات، أما الجنس الأبيض "فلم يَلَوْنُ بشكل واضح فى أى مكان"، ليضيف أن "هذا من وجهة نظر البيض يعتبر شكلا مفيدا من تلاقح السلالات". أما ثقل الفكر اليوجينى فقد حمله ميشيل جاير الذى لاحظ أن "الكثير من طلبية الوراثة يشعرون أن ثمة خطرا كبيرا يكمن فى تهجين أجناس واضحة الانفصال، بغض النظر عن تفوق السلالات الأصلية". اعتقد دافينبورت هووموريس ستاجردا (عالم الحيوان الشاب) أن هذا هو نتيجة دارستها عام ١٩٢٩ المعنونة "تهجين السلالات فى جامايكا" التى تفحصت صفات ثلاث مجاميع من البالغين كل من مائة فرد: الزنوج (السود) والأوروبيين (البيض) والمولدين (السمر). شملت هذه الدراسة صفات المزاج التى قال دافينبورت إنها تهم مشكلتنا الرئيسية: "المقدرة النسبية للزنوج والمولدين على مواصلة حضارة الرجل الأبيض". واستنتج المؤلفان، أن الزنوج ليسوا فقط متخلفين فى المقدرة الذهنية مقارنة بالبيض، لكن نسبة "التشوش الذهنى" فى السمر تزيد عن نسبته فى أى من مجموعتى البيض والزنوج.

برزت فى الحركة اليوجينية بوضوح - لاسيما بالولايات المتحدة - ادعاءات تقول بوجود فروق وراثية بين البروتستانت البيض من أرومة شمال أوروبا (أو "الواسب" كما أطلق عليهم فيما بعد) وبين الأعداد الكبيرة من السود واليهود والكاثوليك المهاجرين. كان ثمة حلقة مؤثرة فى مدينة نيويورك تتعلق حول جمعية جالتون ومكتب السجل لليوجينى، وكانت تضم اليوجينى البارز ماديسون جرانت (الذى وضع "أقول السلالة العظيمة"، وهذا كتاب ظهر لأول مرة عام ١٩١٦ وحظى برواج كبير فى عشرينات القرن العشرين) الذى أصر على أن زواج الجنس الشمالى - وقد ادعى جرانت أنه أسمى مجاميع الجنس الأبيض - بمن هم بونه من العرق القوقازى (الألبى)، أو بالأسوأ حتى من هذا: يسكان حوض البحر الأبيض، سيؤدى بالضرورة إلى هجن ضعيفة.

لم تبرز العنصرية بمثل هذا الوضوح فى اليوجينيا البريطانية. لم يكن فرانسيس جالتون - الأب المؤسس لليوجينيا - بأقل عنصرية من معظم الفكتوريين، لكن مثل هذه الاعتبارات لم يكن لها إلا أقل وزن فى التنظير اليوجينى. فبالرغم من أن كارل بيرسون كان يحط من قدر اليهود

- والزنوج بالطبع - إلا أنه استمتع مرة بإثارة رجل دين في مدينة نيوكاسل عندما أخبر الحضور بأن آدم لايد أن كانت له ملامح زنجية، لأن انسان نيانديرثال كان بالتأكيد أسمر اللون. كان المجتمع البريطاني من الناحية العرقية متجانسا أو يكاد، لقد كان معظم اليهود والكاثوليك الأيرلنديين يتركزون في عدد محدود من المدن، ولم تكن المملكة المتحدة قد خبرت بعد الهجرة الواسعة للملونين. والحق أن بعض اليهود، كالطبيب سلومون هيربرت، كانوا من أبرز شخصيات حركة اليوجينيا البريطانية. صحیح أن اليوجينيين البريطانيين كانوا يتحدثون عن تهديد مهاجری أيرلنده وأوروبا، إلا أن قلقهم الأعظم كان من تهديد النسيج الوطني الذي ينتج عن معدل الولادة التفاضلي، ومايتبعه من إضعاف لقدراتهم الامبريالية التنافسية مقارنة بفرنسا وألمانيا. كانت اليوجينيا البريطانية تتسم مؤكدا بالعداء الطبقي لا العداء السلالي.

ثمة ارتياب صريح من الديمقراطية - بل قل حتى ازدياء - كان يميز بعض التفكير اليوجيني في بريطانيا وأمريكا. ربح هنري فيرفيلد أوزبورن، رئيس المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، بزملائه اليوجينيين في المؤتمر النولى الثانى لليوجينيا بقوله إن "الروح الحقيقية للديمقراطية الأمريكية - بأن كل الناس يولدون ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات - قد خُط بينها وبين المغالطات السياسية، بأن كل الناس يولدون ولهم نفس الصفات ونفس القدرات على حكم أنفسهم وحكم غيرهم، والمغالطات التربوية بأن التربية والبيئة ستتغلب على عيوب الوراثة". لكن، إذا ماكان اليوجينيون الأنجلو أمريكيون يستنكرون المعارضة من القاع الاجتماعى، فإنهم لم يظهروا أيضا شغفا كبيرا بأثرياء مجتمع القمة المعاصر. فموهبة إدارة الأعمال لم يُعترف بها في قائمة الصفات المرغوبة يوجينياً، وكان من العسير العثور على رجل أعمال بين قيادات اليوجينيا فى كلا القطرين. مكنت الحركة اليوجينية الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة العليا فى بريطانيا وأمريكا من أن تتحت لنفسها مركز قوة بين أساطين الصناعة من ناحية وبين الجاميع منخفضة الدخل - المحليين منهم والمهاجرين - من ناحية أخرى. ربما اختلف اليوجينيون الاشتراكيون، والتقدميون، والمتحررون، والمحافظون، بالنسبة لنوع المجتمع الذى يرمون اليه، لكنهم جميعا كانوا متفقين عن إيمان بأن الخبرة البيولوجية التي يقررونها لايد أن تحدد القضايا الانسانية الأساسية للنظام الجديد المدينى الصناعى.

حدد اليوجينيون قيمة الانسان بقدر ما يمتلكه من صفاتهم هم أنفسهم - تماما مثل فرانسيس جالتون، الذي اعتبروه قديسهم الراعى - تلك الصفات التي مكنتهم من النجاح فى المدارس والجامعات والتدريب المهنى. ولقد سورا ما بين الجدارة والذكاء، لاسيما الذكاء الاكاديمى. ومثل جالتون، سنجدهم وقد نفعوا إلى الفرض بأن الذكاء صفة وراثية. التمس كارل بيرسون أن يختبر هذه القدرة الوراثية معتمدا على تقديرات المدرسين للقدرة الذهنية، وقبله اعتمد جالتون علي المركز الاجتماعى والمهنى. أسهم جالتون، في ثمانينات القرن التاسع عشر، في ريادة نهج كمى لدراسة سيكولوجية الاختلافات الفردية بقياس الزمن الذى ينقضى حتى حدوث رد الفعل، وبما أشبه. ولقد أوحى هذا الابتكار للسيكولوجيين فى أوروبا والولايات المتحدة بمحاولة إثبات وجود علاقة بين القدرة الذهنية والصفات الجسمانية. ثم اتضح - عند تحول القرن - الأثمة علاقة من هذا القبيل. لكن فكرة قياس الذكاء جذبت انتباه السيكولوجى الفرنسى ألفريد بينيه - قَدَلَّتْ جالتون فى أهدافه للتُّكْمِيَّة، إن لم يكن فى مناهجه الشخصية.

طلبت الحكومة الفرنسية عام ١٩٠٤ - وهى توسع نظامها التربوى - من بينيه أن يبحث عن طريقة يمكن بها اكتشاف الأطفال المعوقين ذهنيا. قام بينيه بسلسلة من الاختبارات تتألف من عدد من المسائل القصيرة التى صُممت لاختبار صفات مثل الذاكرة، والاستدلال المنطقى، وسهولة الكلام. ثم انه ابتكر بمعونة زميل له يدعى تيودورسيمون نظاما لتصنيف المختبرين تبعا "للعمر العقلى". عرف العمر العقلى للطفل بأنه عمر مجموعة متجانسة من أطفال أسوياء من سن واحد يعطون عند اختبارهم نفس عدد النقاط التى يحرزها الطفل. نعى أنه إذا أحرز طفل عمره ست سنوات عند إختباره عددا من النقاط يعادل متوسط ما يحرزه أطفال أسوياء فى سن العاشرة، فإن عمره العقلى سيكون عشرة، وإذا ما أحرز طفل عمره عشر سنوات نفس متوسط أطفال عمرهم ستة، قلنا إن عمره العقلى هو ستة.

نقل السيكولوجى الأمريكى هنرى هـ. جودارد اختبارات بينيه سيمون من أوروبا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٨. فى ذلك الوقت كانت السيكولوجيا فى أمريكا تتصل من ارتباطها التقليدى بالفلسفة، وكانت تتحرك - تحت قيادة ميدعين من أمثال ج. ستانلى هول فى اتجاه مستقل تجريبى. كان جودارد، تلميذ هول، ممثلا نمطيا لهذا الاتجاه، ولقد تأثر بطبيعته بهذه الاختبارات، فهى على الأقل تبدو وكأنها توفر مقياسا مباشرا كمياً للذكاء. جرب اختبارات بينيه

- سيمون بمدرسة تدريب الأطفال ضعاف العقول بفاينلاند نيوجرسي، وكان قد عُين بها مديرا للمعمل الجديد لدراسة القصور الذهني - وهذا واحد من أوائل المعامل التي أنشئت بأمريكا.

بدا أن هذه الاختبارات تصنف التلاميذ بطريقة تتماشى مع الخبرة المباشرة لمدرسيهم. كانت أعمار "الأولاد والبنات" في مدرسة فاينلاند تتراوح، وتصل إلى الخمسين، ورغم ذلك فلم يحرز أيهم في الاختبار عمرا عقليا يزيد على ١٢ عاما. وعلى عام ١٩١١ كان جودارد قد جرب برنامج بينيه - سيمون على الكثير غير هؤلاء، من بينهم نحو ٢٠٠٠ طفل. اعتقد جودارد أن هذه الاختبارات "دقيقة لحد عجيب، ومن الممكن بسهولة أن يطبقها أى باحث ميدانى لئن أن يعرف أحد أنه قد وُضع تحت الاختبار".

لاحظ جودارد باهتمام خاص أن نتائج الاختبار تكشف عن تباينات واسعة في درجة "الضعف العقلي" - وهذا مصطلح كان يستخدم آنئذ ليعنى مجالا عريضا من القصور الذهني، وأيضا من النزوع نحو السلوك الاجتماعى المنحرف. فتحت هذه النتائج أيضا طريقا للتمييز بين الاختلافات. فعندما حول جودارد الأرقام إلى فئات، تمكن في النهاية من أن يعرف "المعتوه" من بين ضعاف العقل بأنه الشخص الذى يكون عمره العقلي واحدا أو اثنين، أما "الأبله" فعمره العقلي يتراوح ما بين ٣، ٧، أما من يقع عمره العقلي بين ٨، ١٢ فقد أطلق عليه اسم "المغفل".

كشفت بعض الدراسات الميدانية الأولى لجودارد عن عائلات تتميز بارتفاع نسبة القصور الذهني بها - ثمة عائلة ظهر بها ٣٠٠ فرد من بين ٦٠٠. اشتبه - مثل الكثير غيره من علماء عصره - فى أن صفة "الضعف العقلي" صفة وراثية. ولقد اعترف لتشارلس دافينبورت أن مالدیه بالنسبة لوراثة القصور الذهني هو "حماس أكثر منه علم". بدأ دافينبورت يتشاور مع جودارد حول الموضوع عام ١٩٠٧. ليجعل من وراثة ضعف العقل موضوعا ذا أهمية متزايدة فى مكتب التسجيل البيوجينى، ووفر لجودارد بحثا ميدانيين يساعده فى إجراء بحث علمى عن الخصائص الذهنية لتلاميذ فاينلاند وأقربائهم فى المجتمع المحلى.

باستخدام هذه البيانات نشر جودارد عام ١٩١٢ بحثا عنوانه "عائلة كالكاك: دراسة فى وراثة ضعف العقل"، تفحص فيه هذه العائلة ذات الاسم المستعار (اشتق هذا الاسم من كلمتين يونانيتين هما كالوس وتعنى "طيب" وكاكوس وتعنى "رديء")، واتبعا بعد سنتين

بدراسة أخرى عنوانها "ضعف العقل: أسبابه ونتائجه"، وفيها تصور أن ضعاف العقول هم صورة من صور الانسانية غير المتطورة: "كائن حيوانى قوى ذو ذكاء منخفض وجسم متين - الانسان البرى لعصرنا". رأى جودارد ضرورة أن نميز ما بين المغفل والمجنون، فعقل الأخير مريض، أما عقل الأول "فهو - وظيفيا - عقل قزم". وأكد أن المغفل - على عكس المعتوه والأبله - قد يبدو طبيعيا، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك.

كشفت دراسات تالية فى الذكاء طبقت فيها اختبارات بينيه - سمون، عن ارتفاع نسبة القصور الذهني بين نزلاء السجون والاصلاحيات وملاجئ المتمردات. حاول جودارد أن يبرهن على أن ضعاف العقول يفتقرون إلى "عامل أو آخر ضرورى للحياة الطبيعية - تفهم للصواب والخطأ، القدرة على التحكم"، يصبح المبتلون بهذه العلة مهملين لأنه لا يستطيعون النجاح فى الدراسة. ويكبرون ليصبحوا مجرمين لأنهم يفتقرون إلى القدرة على "فعل الصواب وتجنب الخطأ"، أو معوزين لأنهم يجدون أن أفعال المعيشة تفوق قدراتهم، أو مومسات لأنهن ضعيفات العقول وغيبات. لم يكن جودارد متاكدا من سبب القصور الذهني وهل هو ناتج عن وجود شيء فى المخ يثبط تطوره الطبيعي أم عن غياب شيء يُفترض أن ينبهه. لكن أيا كان السبب، فثمة ما هو متأكد منه: إن الصفة تسلك سلوكا مندليا. كان ضعف العقل حالة للعقل أو الذهن تنتقل بنفس انتظام واثبات صفة لون الشعر أو العين.

كان لبحث جودارد أثر بالغ على الجماعة المهتمة بدراسة الانحراف الاجتماعى. تزايد الاعتقاد بأن منشأ السلوك غير الاجتماعى يكمن فى النموذج الذهني لا الجسدى، وأن هناك كما يقول ميشيل جاير "قدرا كبيرا من الجريمة والفسوق الفاضح يرجع أصله إلى ضعف العقل". قُدرت نسبة ضعاف العقول فى أمريكا برقم يتراوح بين ١٪ و ٢٪ من المجتمع، وكانت العادة أن يقال إنهم يمثلون "خطرا". بدأ العلماء على جانبي الأطلنطى، المهتمون بالمعوقين ذهنيا، فى تفحص تاريخ عائلاتهم، وجدوا أن بعض حالات القصور الذهني ترجع فى الواقع إلى مرض أو حادثة، لكن الفكرة الشائعة بخصوص السبب الرئيسى كما فحصها هافلوك إليس عام ١٩١٢ هي: "أن ضعف العقل ينتقل بالوراثة".

نبهت اختبارات جودارد غيره من السيكولوجيين لاختبار نظم مختلفة للتقييم الكمي للمقدرة الذهنية. ابتكرت نظم جديدة للاختبار تصلح للأطفال الطبيعيين وللأطفال المتخلفين ذهنيا. من

بين أهم هذه النظم كان ثمة تنقيح لاختبارات بينيه - سيمون نشره عام ١٩١٦ - فى جامعة ستانفورد - السيكولوجى لويس تيرمان (وهو طالب آخر من طلبة ج. ستانلى هول) الذى توصل إلى اختبار ذهنى وإلى نظرة وراثية للذكاء من خلال بحث له تم على الأطفال المبكرين فى النضج ذهنى - ومن بينهم ابنه وابنته. كان تيرمان هو من قدم مصطلح حاصل الذكاء (ح ذ). وهذا مفهوم ابتكره السيكولوجى الألمانى وليام شتينر، ويعبر عن نسبة العمر العقلى للطفل، إلى سنه، مضروبة $\times ١٠٠$. فإذا كانت النسبة = ١ فإن ح ذ للطفل يكون ١٠٠، وإذا كانت ٠.٩ يكون ح ذ = ٩٠، وإذا كانت ١.١ يكون ح ذ = ١١٠ وهكذا (سعد تيرمان كثيرا إذ ذكر أن ح ذ لابنه وابنته كان يقع دائما ما بين ١٢٥، ١٤٠).

قبل الحرب العالمية الثانية كان ثمة قدر كبير من المقاومة لاختبار الذكاء. كان من الضرورى أن تجرى الاختبارات فردية. والعادة (كما ادعى الكثير من السيكولوجيين) أن تجرى بواسطة سيكولوجى متخصص. ويسبب ارتفاع التكاليف استخدمت الاختبارات فى معظمها فقط لتحديد هوية تلاميذ المدارس المعوقين ذهنيا وتصنيفهم. لكن المهم هو أن الكثيرين كانوا يعتقدون أن اختبار الطفل إنما يعنى التشكك فى ذكائه، ذلك أن هذه الاختبارات كانت ترتبط بقياس القصور ذهنى. وفى عام ١٩١٦ عرضت قضية إسترماير أمام محكمة نيويورك العليا. أوصى بأن تودع الطفلة فى مؤسسة للرعاية بسبب ما يبدو انخفاضها فى ذكائها. واعترض الوالدان. رفض القاضى جون و. جوف أن يقبل نتائج اختبار بينيه - سيمون دليلا على ما ادعى من قصور بذهن الطفلة، وأعلن أن "توحيد قياس العقل أمر باطل كمثل توحيد قياس الكهرباء" ثم حذر من أن "المتحمسين للعلم أو العلم الكاذب" يمكن بسهولة شديدة أن يشهدوا شهادة متحيزة بالنسبة للاختبارات (شجبت "التايمز" النيويوركية رأى القاضى جوف: "إن اختبارات بينيه - سيمون إذا ما طبقت بذكاء لى جديرة بالثقة تماما مثل جدول الضرب"). على أن هواجس القاضى قد نُسيت بسرعة، فلقد استخدم الاختبار بكثافة أثناء الحرب العالمية الأولى لفرز مئات الآلاف من المطلوبين للقرعة العسكرية الذين تدفقوا على جيش الولايات المتحدة.

كان رئيس المختبرين فى فترة الحرب هو عالم السيكولوجيا المقارنة روبرت م. يركيس، الذى تشكلت مواقفه العلمية جزئيا عن طريق فرانسيس جالتون. فلقد أطلعته دافينبورت أيام كان يدرس له فى هارفارد عام ١٨٩٨ على أعمال جالتون. ساعد يركيس أثناء عمله كعضو هيئة تدريس شاب فى هارفارد، ساعد فى إثارة قضية فصل السيكولوجيا عن الفلسفة،

مصرا علي أن دراسة الظواهر السيكولوجية لابد أن تركز على الحقائق لاعلى التأملات، ولا بد أن تُربط بعلم منهج تجريبي، بل والأفضل، كَمَى. بدأ يركيس بعد أن سحرتة دراسة القدرة الذهنية، بدأ عام ١٩١٢ فى إجراء تجاربه مستخدما الاختبارات العقلية فى مستشفى بوسطن للأمراض النفسية بالاشتراك مع بروفيسور إيرنست أ. سووارد، من كلية طب هارفارد، وهذا حليف جودارد، ومستشار دافينبورت، ويوجينى مؤكد. طور يركيس مع جيمس ويريدجز (طالب الدراسات العليا فى السيكولوجيا بهارفارد، والطبيب المقيم بالمستشفى) طورا مقياس يركيس، وهو مقياس منافس لنظام بينيه - سيمون فى قياس القدرة العقلية. وفى عام ١٩١٦ - نفس السنة التى انتُخب فيها يركس لرئاسة الجمعية السيكولوجية الأمريكية - رفضت هارفارد منحه منصبا أكاديميا، ويبدو أن هذا يرجع أساسا إلى أن إدارة الجامعة كانت تعتبر أن مجال عمله لا يستحق. كان لدى يركيس - المحب لليوجينيا والطُموح للعلم - أسبابه الخاصة للتدليل على أهمية استخدامات عمله خلال فترة الحرب (قال ذات مرة "إن الانسان، نظريا، يخضع للقياس، تماما مثل قضيب الحديد").

كانت الأكاديمية القومية للعلوم قد شكلت أثناء ذلك مجلسا قوميا للبحوث لتحريك العلماء للدفاع. وفى مايو ١٩١٧ وتحت رعاية هذا المجلس، شرعت جماعة من السيكولوجيين - يرأسها يركيس وتضم تيرمان وجودارد - فى تصميم برنامج اختبار من أجل الجيش "ليس أساسا لاستبعاد المتخلفين عقليا، وإنما لتصنيف الرجال بحيث يمكن أن يلحقوا بالوحدات الصحيحة بالجيش"، كما قال يركيس. وضعت اللجنة مجموعتين من الامتحانات بهدف إدخال النظام العلمى إلى التصنيف: اختبارات ألفا للمتقنين، واختبارات بيتا لمن عداهم. وكان من الممكن أن تستخدم هذه الاختبارات جماعيا علي البالغين، على عكس معظم اختبارات الذكاء فى ذلك الحين. قال تيرمان "إذا كان لآلة الجيش أن تعمل بسلاسة وكفاءة، فمن الضرورى أن توافق الوظيفة الرجل، كما توافق الذخيرة البندقية".

تتألف اختبارات ألفا من نوع الأسئلة المألوف لدى الطلبة - المتواليات الرقمية، تناظر الكلمات، مسائل الحساب، مشاكل المرادفات والمناقضات، وأسئلة العقل العام. أما اختبارات بيتا فكانت تتألف أساسا من مسائل تصويرية تتضمن مقارنة أشكال، وإكمال رسوم ناقصة. كان لدى العسكرى النظامى شكوكه حول الهدف من هذه الاختبارات وحول استخدامها العلمى، بل لقد اشتبه بعض الضباط فى أن يركيس وطاقمه يحيلون المعسكرات إلى معامل

تخدم أغراضا تخصصهم. ثم أن معظم الضباط القدامى رأوا أنهم قادرون تماما على أن يقرروا بون أى اختبارات أى الرجال يصلح كجندي وأيهم لا يصلح. في فورت ديكس رأى القائد أن واحدا من المجندين، كانت درجته في الاختبار منخفضة للغاية، هو "مثال للولاء والثقة والمرح والهدوء وحب المساعدة"، ثم تسأل مندهشا "قيم يهمننا ذكاؤه؟".

اكتشف الناقدون في الجيش مشكلة ستظل تزعج ممتحنى الذكاء. فالاختبارات متحيزة إلى المهارات المدسية، ونتيجتها تعتمد على الخلفية التربوية والثقافية للشخص المختبر. ادعى بركيس وغيره أن هذه الاختبارات تكاد تكون مستقلة تماما عن التاريخ البيئى للشخص الممتحن، وأنها تقيس "الذكاء الفطرى"، لكن المؤكد أن السؤال التالى من اختبار ألفا يتطلب معرفة يصعب أن يوفرها الذكاء الفطرى: يستخدم محرك نايت فى: الباكار/ ستيرنز/ لوزير/ بيرس أرو. كما أن من يجرى عليه الاختبار قمين بأن يصيب نجاحا أكبر فى مسائل المرادفات والمسائل الحسابية باختبار ألفا، إذا كانت ثقافته المدرسية أكتف. كان على المجندين الأميين والمجندين الذين لا يعرفون الانجليزية أن يتغلبوا، فى اختبار بيتا، على الغموض والشك للذين يكتنفان التوجيهات الشفوية. ثم أن الكثيرين ممن يجرى عليهم اختبار بيتا لم يسبق لهم أن دخلوا اختبارا تحريريا. يقول أحد الممتحنين "لقد أثر فى كثيرا أن أرى الجهود الفائتة... الذى يُبذل لإجابة الأسئلة، يقوم به رجال لم يسبق لهم يوما أن أمسكوا بقلم". على أن الجيش كان عليه أن يفرز العدد الهائل من المتقدمين للتجنيد، وكانت هذه الاختبارات توفر بعض الدلالات على القدرة الذهنية. مضى برنامج الاختبار قدما. وبحلول الهدنة كان عدد من اختبر بالفعل قد بلغ مليونا وسبعمائة ألف شخص. استخدم الضباط هذه البيانات فى تعيين المكان الملائم للأفراد. ولقد ظل محتوى الاختبارات سرا من الأسرار العسكريه طيلة فترة الحرب.

أثارت تجربة الاختبارات أثناء الحرب تحولا خطيرا فى موقف الجمهور من اختبارات الذكاء. تدفقت مئات الاستفسارات على بركيس بعد الحرب للسؤال عن اختبارات ألفا وبيتا، بعد أن أصبحت مباحة. صاغ بركيس وزملاؤه، بمساعدة منحة من مؤسسة روكيفيلر، اختبارا قوميا قياسيا للذكاء، بيع منه أكثر من نصف مليون نسخة فى أقل من عام. فحص مختبرو الذكاء أعدادا أكثر وأكثر من نوى الإملاق والسكيريين والمنحرفين والمومسات. أدخلت المؤسسات الصناعية والتجارية الاختبارات العقلية فى مسوغات تعيين موظفيها. أجريت

اختبارات الذكاء سنويا على بضعة ملايين من تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، وبدأت بعض الكليات والجامعات في استخدام اختبارات الذكاء عند قبول الطلبة الجدد.

نتج عن رواج الاختبار بعد الحرب قدر كبير من البيانات المتعلقة "بذكاء" الشعب الأمريكي، لكن حجم هذه البيانات كان متواضعا مقارنة بما نتج عن برنامج الاختبار أيام الحرب. اخصت الاكاديمية القومية للعلوم هذه التجربة عام ١٩٢١ في مجلد ضخم عنوانه "الاختبار السيكولوجي في جيش الولايات المتحدة". قام بريكس وتيرمان وزملاؤهما بصياغة التقرير، وقُسمت فيه عينة كبيرة من نتائج الاختبارات تبعا للمنطقة الجغرافية، والخلفية العرقية والسلالية. لم يلق هذا المجلد رواجاً كبيراً رغم سمكه (بوصتين) ووزنه (خمسة أرطال) وعدد كلماته الذي يزيد على نصف مليون كلمة، ولكنه شكّل الأساس للعديد من الكتب والمقالات الشعبية عن اختبارات الذكاء وعن أهميتها الاجتماعية. كان هناك من بين المجندين عدد يقترب من المائتي ألف (نحو ربع قوة الجيش) لا يستطيع قراءة الجرائد أو كتابة الرسائل للأهل. وربما كان من أهم النتائج أن ظهر أن العمر العقلي للمجنّد الأبيض المتوسط (وبالتالي الأمريكي الأبيض) كان ثلاثة عشر عاما.

قام السيكولوجي كارل بريجهام - وهو واحد ممن أجرى اختبارات الجيش أثناء الحرب - قام بالتوسع في تحليل بيانات الجيش عام ١٩٢٢ في كتابه "دراسة في الذكاء الأمريكي". قال بريجهام إن بيانات الجيش تشكل "أول إسهام جوهري حقا في دراسة الفروق العرقية بالنسبة للصفات العقلية". أسرّ دافينبورت في المرحلة الأولى من تحليل بياناته "بأننا نسير على الطريق السليم عندما نقول إن البلازما الجرثومية التي تصل الآن إلى الوطن لاتحمل نفس ماكانت تحمله سابقا من إمكانيات". أذاع هنري جودارد عام ١٩١٧ أن اثنين من كل خمسة يصلون على ظهر السفن هم من "ضعاف العقول". وكان ذلك بناء على نتائج اختبار بينيه - سيمون الذي تم قبل ذلك بخمس سنوات على مجموعة صغيرة من المهاجرين "العاديين" وصلت إلى أليس أيلاند. وجد كارل بريجهام - بناء على اختبارات الجيش - أن "السلالات" الآتية من الأب أو من منطقة البحر الأبيض "متخلفون ذهنيا عن نموذج الجنس الشمالي". ثم أنه قد أعلن أيضا أن متوسط ذكاء المهاجرين ينحدر، وهو قول ذاع كثيرا في المطبوعات الشعبية.

الواضح أن متوسط ذكاء الأمريكيين السود كان على المستوى المنخفض الذي يجب الأمريكيون أن يتصوروه. وعلى من يشك في هذا أن يرجع إلى تحليل بريجهام لبيانات الجيش.

ولقد بينت اختبارات أخرى مسّحية أن السود يشكلون نسبة من "ضعاف العقول" تزيد عن نسبتهم في المجتمع. ويبدو أن اختبارات الجيش كانت تشير أيضا إلى أن العمر العقلي للشخص الأسود العادي بالولايات المتحدة هو عشر سنين.

الواضح أن هناك كوكبة من الأسباب قد تبرر هذه النتائج - من بينها التحيز الثقافي لاختبارات الجيش نفسها، والثقافة المتواضعة للكثير ممن ينفذون الاختبار. لكن بيانات الاختبارات التي افترض موضوعيتها قد أقنعت الأمريكيين المؤمنين باليوجينية ليس فقط أن الوراثة تحدد التخلف الذهني، ولكنها تحدد الذكاء أيضا. كان طلبة الجامعة البيض يحرزون نتائج طيبة للغاية في اختبارات ألفا، ومثلهم أيضا طلبة المرحلة الثانوية من البيوت الأنجلو سكسونية وبيوت كبار الموظفين. وقد أخذ هذا على أنه يعني أن الطلبة الموهوبين يخرجون من بيوت - على حد تعبير أحد المدرسين - "متميزة عرقيا واقتصاديا واجتماعيا وذكاء". فورا أبرز تيرمان والبعض غيره من السيكولوجيين أن فتح مجالات الفرص أمام أبناء الجامعات الدنيا من الناحية الاجتماعية الاقتصادية قد لا يؤدي إلى شيء، فحظهم من حذ لم يكن منافسا. أخذ جورج ب. كاطين رئيس جامعة كولجيت نتائج اختبار الجيش مرتكزا لمهاجمة دقراطية التعليم العالي، ثم تعجب بصوت عال في خطاب تولّيه منصبه عما إذا كانت الديمقراطية نفسها ممكنة في دولة يبلغ متوسط العمر العقلي لشعبها ثلاثة عشر عاما.

لم يكن لدى اليوجينيين البريطان مجموعة مناظرة من البيانات تعضد معتقداتهم عن الطبيعة الوراثية للذكاء، ولكن كان لديهم سيريل بيرت. كان بيرت - ابن طبيب الأرياف - قد تأثر ذهنيا في شبابه بفرانسيس جالتون العجوز - الذي كان من بين المرضى الذين يعالجهم والده. تشرب مبادئ جالتون الوراثية أثناء دراسته باكسفورد في أوائل القرن وأثناء عمله كمعيد في الفسيولوجيا والسيكولوجيا بجامعة ليفربول، كما تشرب بتقنيات كارل بيرسون الاحصائية، وبالنظرية المندلية للوراثة، وأصبح من أوائل الأعضاء في جمعية الثقافة اليوجينية. وفيما بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١ اختبر صبيانا من مدرسة اعدادية وأخرى أولية عليا في أكسفورد، ومن مدرسة في حي الفقراء بليفربول. كان معظم أطفال المجموعة الأولى من أبناء أساتذة الجامعة وأعضاء الجمعية الملكية ورجال الدين، أما الثانية فكان معظم أطفالها من أبناء صغار التجار والحرفيين، بينما كان أطفال المجموعة الثالثة من أبناء العمال. كان أداء صبيان المدرسة الاعدادية أفضل من أداء صبيان المدرسة الأولية، الذين كان أداؤهم بدوره أفضل بكثير من

أداء صبيان مدرسة ليفربول. "إن القدرة الذهنية تورث بين الأفراد. إن البراهين على هذا براهين حاسمة"، هكذا صرح بيرت معلنا موقفه الذي أذاعه في عناد ليصبح في متناول الجمهور.

قرأ بيرت في أعجاب بمجلة "يوجينيك ريفيو" تقريراً يشبه تقارير بريجهام وضعه روبرت يركيس عن نتائج اختبار الجيش بالولايات المتحدة. كتب إلي يركيس يقول "إن عملك عن الجيش الأمريكي قد قدم للبيولوجيا بهذه الدولة زخماً هائلاً". لم يظهر معمل بيرت - مثل الفكر اليوجيني عوماً - إلا القليل من المواضيع العرقية التي تميز المدرسة الأمريكية. والحق أنه استنبط بعد استعراض للبحوث البريطانية والأمريكية عن الخصائص العرقية، استنبط أنه بالرغم من أن أثر الوراثة بالنسبة للأفراد "كبير، لا يقبل الجدل" فهو بالنسبة للسلالة "صغير، مثير للخلاف". أدرك بيرت أيضاً - وهو مَنْ كان يوماً عاملاً في منازل القرى - أنه من الصعب أن تعزى كل الجريمة والانحراف إلى مجرد ضعف العقل. لكن كتاباته أعطت دعماً كبيراً في سنى ما بين الحربين للاعتقاد بأن الذكاء ليس وراثياً فقط، وإنما هو مرتبط وبشدة بالوضع الاجتماعي الاقتصادي - نعني الطبقة، الصفة الرسمية التي تشغل اليوجينيا البريطانية.

أيا كان تحامل اليوجينيين البريطان واليوجينيين الأمريكان، فلقد أزعجهم جميعاً اتجاه ذكاء الأمة في بلادهم. فقبل الحرب العالمية الأولى، حذّر يوجينيون مثل كارل بيرسون وتشارلس دافينبورت من أن تزايد النسل في الطبقات الدنيا إنما يفضل مَنْ هم أقل صلاحية. ولقد قدم تنامي اختبارات ح ذ بعد الحرب دعماً كميّاً للفكرة اليوجينية عن الصلاحية. ففواج الاختبار العقلي قد تسبب في أكثر من مجرد تنمية الخوف من "خطر ضعاف العقول". لقد وحّد بين المصدر الرئيسي للخصب الطائش وبين المجاميع المنخفضة في حاصل الذكاء، وعادل بين التدهور القومي وانحطاط الذكاء القومي.

اقتنع معظم مختبري الذكاء وجمهورهم بالنظرية البيولوجية، فقد قُدّمت لهم في لغة علم تبدو محايدة، ولقد تشكل جانب كبير من أفكارهم عن التحامل العرقي والطبقي الذي كان قد عم اليوجينيا. قدم هنري جودارد بنفسه رأيهم العلمي في محاضرة له بجامعة برينستون عام ١٩١٩: "إن المحدد الرئيسي للسلوك الإنساني هو العملية الذهنية المتكاملة التي نسميها الذكاء... تتحكم في هذه العملية آلية عصبية... ودرجة الذكاء أو المستوى العقلي لكل فرد

يحدده نوع الكروموزومات التي تتلاقى باتحاد الخلايا الجنسية... (و) هي لانتاثر إقلىلا بأى عامل تال، اللهم إلا الحواث الجسامة التي تدمر جزءا من الآلية. وعلى هذا فإن أية محاولة للتعديل الاجتماعى لاتضع فى اعتبارها أن صفة الذكاء صفة جبرية، وأن درجة ذكاء الفرد لاتتغير، هى محاولة غير منطقية وغير كفاء.